

## التأثير المتبادل بين علاقة الإنسان مع الطبيعة وأخيه



والعلاقة القرآنيّة الثنائية، تبرز من الجانب الآخر مدى تأثير علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان على علاقات الإنسان مع الطبيعة. أما العلاقة الأولى التي تبرز تأثير علاقات الإنسان مع الطبيعة على الخط الآخر، فمؤدى هذه العلاقة هو أنه كما نمت قدرة الإنسان على الطبيعة، واتسعت سيطرته عليها، وازداد اغتناء بكنوزها، ووسائل إنتاجها، تحققت بذلك إمكانية أكبر فأكبر للاستغلال على خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ \* أَلَمْ يَرَأْهُ اسْتَغْنَىٰ} [العلق: 6، 7]. هذه الآية الكريمة تشير إلى هذه العلاقة، إلى أن الإنسانية بقدر ما تتمكن وتستقطب الطبيعة وتوصل إلى وسائل إنتاج أقوى وأدوات توليد أوسع، تكون انعكاسات ذلك على حقل علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، انعكاساته على شكل إمكانيات وإغراءات وفتح الشهية للأقوياء لكي يستثمروا أداة الإنتاج في سبيل استغلال الضعفاء.

تصوروا مجتمعاً يعيش على الصيد باليد والحجارة والهراوة، مثل هذا المجتمع، لا يتمكن من أن يمارس بذور الأقوياء، بذور الوحوش فيه لا يتمكنون على الأغلب من أن يمارسوا أدواراً خطيرة من الاستغلال الاجتماعي، لأن مستوى الإنتاج محدود، والقدرة محدودة، وكل إنسان لا يكسب عادة بعرق جبينه إلا قوت



مفهوم القرآن الكريم، وذلك لأن مجتمع الظلم، مجتمع الفراعنة على مرّ التاريخ، مجتمع ممزق، مشتت، الفرعونية على مرّ التاريخ حينما تتحكّم في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، تستهدف تمزيق طاقات المجتمع، وتشتت فئاته، وبعثرة إمكاناته... وهذا هو الفرق بين المثل العليا المنخفضة الفرعونية، وبين المثل الأعلى الحقّ، مثل التوحيد سبحانه وتعالى، فإن المثل الأعلى يوحد الجامعة البشرية، ويلغي كل الفوارق والحدود، باعتبار شمولية هذا المثل الأعلى، فهو يستوعب كل الحدود وكل الفوارق، يهضم كل الاختلافات، يصهر البشرية كلها في وحدة متكافئة، لا يوجد ما يميز بعضها عن بعض، لا من دم ولا من جنس ولا من قومية ولا من حدود جغرافية أو طبقية.

المثل الأعلى بشموليته يوحّد البشرية، ولكن المثل العليا المنخفضة تجزئ البشرية، وتشتت البشرية، انظروا إلى المثل الأعلى كيف يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52]، هذا هو منطق شمولية المثل الأعلى التي لا تعترف بحدّ وبحاجز في داخل هذه الأسرة البشرية. انظروا، استمعوا إلى المثل المنخفض، إلى مجتمع الظلم وآلهة مجتمع الظلم، كيف يقولون، أو كيف يتحدث عنهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ آلَهُ أَهْلًا شَيْعَةً﴾ [القصص: 4]، فرعون المثل الأعلى المنخفض، الفرعونية على مرّ التاريخ التي تبني العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس الظلم والاستغلال، الفرعونية تجزئ المجتمع، تبعثر إمكانات المجتمع، وطاقات المجتمع، ومن هنا، تهدر ما في الإنسان من قدرة على الإبداع والنموّ الطبيعي على ساحة علاقات الإنسان مع الطبيعة، وعملية التجزئة الفرعونية للمجتمع تقسّم المجتمع إلى فصائل وجماعات: الجماعة الأولى ظالمون مستضعفون، هذه الجماعة الأولى في التقسيم الفرعوني هم الظالمون المستضعفون، في الوقت نفسه، الظالمون الثانويون، أو بحسب تعبير أئمتنا (عليهم الصلاة والسلام) «أعوان الظلمة»، هؤلاء الظالمون المستضعفون يشكّلون حماية لفرعون وللفرعونية، وسنداً في المجتمع لبقاء الفرعونية واستمرار وجودها وإطارها. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُوا قُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْزَلْنَا لَكُمْ نَسْأَةً مِّنْ مِّنْجِنًا﴾ [سبأ: 31].